الفيلسوف الفارسي الكبير

صدر الدين الشيرازي

— ٢ —

(روح عصر صدرالدين) : اذا اردنا ان نصوّر شخصية رجل حكيم مفكر ظهر بآراء جديدة وافكار نيرة في محيط مظلم جوّه بسحب الجمود والعصبية لا بد ان نصور عصره الذي عاش فيه ليحيط القارئ علماً بشخصية ذلك الرجل البارزة .

ان من درس روح العصر الذي ظهر فيه صدر الدين في المحيط الفارسي يتمثل أمامه روحان روح التصوف البحت وتأويل نصوص الشريعة وروح الجمود على ظواهر الكتاب والسنة والنضال باشكاله كان بين الروحين يشتد آونة و يضعف أخرى . ومؤلفات الفريقين مشحونة بطعن كلّ على الآخر ولحدوث كل من الروحين وسريانها سبب اصلي نبينه لنصور به روح عصر الفيلسوف .

ولا نعتمد فيما نقول الاّ على كلمات الثقات المشهورين من العلماء الذين عاشوا في فارس في هذا العصر .

اما سبب حدوث التصوف في فارس وانتشاره فيه هو ان التاريخ يدلنا على ان مذهب الباطنية وتعاليم عبد الله وابيه ميمون بن ديصان طافت في كثير من الارجاء الاسلامية فصادفت في فارس تربة صالحة للنموّ لان الباطنية تظاهرت بمذهب التشيع وفارس كانت معقل الشيعة والباطنية تقرب من التصوف الاسلامي اذ هما يلتقيان في نقطة تأويل نصوص الشريعة وتقريبها من العقل والقول بان لها باطناً غير ظاهرها اضف الى ذلك ما كان في افكار الفارسيين من الانس بمذاهب الفلسفتين الاغريقية والهندية اللتين يصح ان يعتبر التصوف الاسلامي وليدهما .

ومعلوم ان المذاهب على انواعها فلسفية كانت ام ادبية ام سياسية اذا وجد لها ناصر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ومعاضد من المسيطرين على الامة التي تمذهبت بها تسرع في خطاها والتصوف الفارسي من المذاهب التي هيأ لها الزمان ناصراً ومعاضداً قوياً فان الدولة الصفوية التي عاش في ظلها صدرالدين ظهرت من ناحية التصوف فاول الملوك الصفويين ومؤسس دولتهم كان صوفياً بحتاً وجده الشيخ صفي الدين من اعظم اقطاب الصوفية وقبره في اردبيل[1] مزار لمر يديه الى الحال وعليه ابنية فخمة ٠

خرج الشاه اسماعيل الصفوي من جيلان بلفيف من الصوفية المريدين له ولجده الشيخ صفي الدين في سنة ٩٠٦ هـ وهو ابن اربعة عشر سنة وفتح بلاد اذربايجان فروح التصوف كانت سارية في ملوك ايران الصفويين المعاصرين لصدرالدين قال بعض مورخي الافرنج[2] ان تصوف الشيخ صفي الدين هو الذي حفظ كيان الدولة الصفوية نحو مائتي سنة ولولا ان السياسة الصفوية في جنبها كانت تدعو الى تقوية المذهب المخالف له اي مذهب الجمود الذي كان يحسب نفسه من الدين لكان التصوف اكثر شيوعاً مما كان عليه وذلك ان سلطان الدين كان قوياً والمسيطرون والملوك مضطرون الى مجاراة تيار الفكر الشائع وطاعة صوت الجمهور ولو كان على خلاف ما يرغبون وما يضمرون ٠

قال الشيخ يوسف البحراني المتوفى سنة ١١٨٦ وهو من كبار محدثي الشيعة في كتابه لؤلؤ البحرين في شأن محسن الفيض تلميذ صدر الدين وخريجه الكبير ما نصه :

لاشتهار مذهب الصوفية في ديار العجم وميلهم اليه بل غلوهم فيه صارت له (اي للمحسن) المرتبة العليا في زمانه والغاية القصوى في أوانه وفاق الناس جميع أقرانه وقول هذا المحدث الثقة الجليل يدل على اشتهار مذهب التصوف وكثرة انصاره في العصر الذي عاش فيه صدر الدين ٠

وكان في جنب هذه الروح الجمود بادياً في طائفة من اهل الحديث والفقه وكانوا متمسكين بظواهر الكتاب والسنة وكان سببه شدة تمسكهم بالدين واستيلاء سلطانه على نفوسهم وبُعدهم عن اغراضه واسراره ٠

---

(١) اردبيل مدينة كبيرة في فسيح من الارض واقعة على (٢١٠) كيلومترات من شرقي تبريز في شمالي فارس ٠ (٢) وهو سرجان ملكم في تاريخه الذي وضعه لايران ٠

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وكانوا يرون اتباع العقل المحض والمبادي الفلسفية مروقاً عن الدين وسلوكاً لسبيل المضلين .

والقاريء يجد في ضمن هذه الرسالة كلمات للعلماء المشهورين من هذه الطائفة كالسيد نعمة الله التستري والشيخ يوسف السابق الذكر في شأن الفلسفة والتصوف وشأن صدر الدين بقول الشيخ يوسف في ذيل كلامه السابق كان التصوف شائعاً في عصر (المحسن الفيض) حتى جاء على اثره شيخنا المجلسي [1] وسعى غاية السعي في سدّ تلك الشقاشق الفاغرة واطفاء تلك البدع البائرة [2] وهذا الكلام يمثل للقاريء شقة الخلاف بين المذهبين قلنا ان التصوف كان شائعاً في عصر صدرالدين الا ان شيوعه كان نسبياً وكانت الغلبة للجمود لان السياسة كما قلنا كانت تدعو الى تقوية عضد الدين ورجاله .

لان الصفويين اسسوا دولتهم في ظل الدين والتشيع وموالاة اهل بيت النبي عليهم السلام وكان نصر الفقهاء والمحدثين المتمسكين بالظواهر سبباً لحفظ عرشهم ودفع كيد خصومهم ولكن كانت في ضمن هذا النضال للتصوف حركة معنوية صح ان نقول انه كان فائقاً على مظاهر الجمود و يشهد به ان جماعة من العلماء المشهورين بالزعامة الدينية والفقهاء كانوا من انصاره فان الشيخ بهاء الدين العاملي المتوفى سنة ١٠٣١ او ١٠٣٠ الذي اعتمد عليه الشاه عباس الاول الصفوي وفوّض اليه منصب شيخ الاسلام في ايران كما ذكر كان ممن ينصر التصوف وقلبه مطمئن بصحته . وكلماته يلوح منها ذلك فهذا دليل على ستيلاء روح التصوف على روح هذا الشيخ المحدّث الفقيه الذي كان يمثل بظاهره فريق

---

(١) هو محمد باقر بن محمد تقي بن مقصود علي المجلسي الاصبهاني من اعظم محدثي الشيعة ورؤسائهم الروحيين في عصر الصفويين عاصر الشاه سليمان والشاه سلطان حسين الصفويين وكان هذا المحدث الكبير ممن يتصدى لشؤون السياسة و يستشيره السلطان في تدبير الملك وتنظيم ايران وله آثار علمية جليلة كثيرة منها كتابه الكبير (بحار الانوار) في أحاديث الائمة الاطهار في ٢٤ مجلداً كبيراً وفي بعض مجلداته بحث عن علوم متنوعة من الفلك والفلسفة والكلام ولاسيما في جزئه المسمى (بالسماء والعالم) توفي سنة ١١١١ هـ ومجلس كما قيل قرية من قرى اصبهان . (٢) وفي نسخة البائرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

اهل الجمود وصنف رسالة في وحدة الوجود وبيان مذاهب الصوفية وقال فيها ما نصه :

ولا شك انهم اي الصوفية من اولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة والذين آمنوا وكانوا يتقون . طبعت الرسالة في القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ .

و يدل عليه كلام صاحب لؤلؤ يقول في كتابه المذكور ربما طعن عليه القول بالتصوف لما يتراءى من بعض كلماته واشعاره في هذا العصر الذي تلبّد جوّه بسحب الجمود عاش صدر الدين وروح فلسفته التصوف واصول الفلسفتين الاغريقية والفارسية الفهلوية وتمكن من وضع تآليفه الكثيرة الجليلة التي أخلدت له الذكر الجميل ولم يصبه ما اصاب الفلاسفة الاحرار من الاضطهاد والزجر والقتل .

(فتوى رجال الدين بكفره) : أفتى جماعة من رجال الدين والفقه المتمسكين بظواهر الشريعة بكفره واخذوا عليه أموراً :

(الاول) انه ذهب الى مذهب وحدة الوجود كما صرّح به في كتبه وفلسفته حتى في تفسيره نقل قول محيي الدين بن عربي ان فرعون مات مؤمناً موحداً واستحسن هذا الكلام بقوله هذا كلام يشم منه رائحة التحقيق .

(الثاني) انه ذهب في شرحه لكتاب الكافي وفي تفسيره لسورة البقرة وفي كتابه الكبير (الاسفار) الى انقطاع العذاب عن اهله في الآخرة وانكر الخلود في النار وهو خلاف ما علم بضرورة من الدين .

(الثالث) ذكر في الاسفار في بحث العشق ان عشق الغلمان وصور الحسان عشق مجازي وهو قنطرة الى عشق الاله وفيه روح المذهب البالتيسمي .

(الرابع) انه ذهب الى المعاد الجسماني بما لا يلائم ظاهر الشريعة ومذهبه في المعاد كمذهب الشاعر الفيلسوف (عمر الخيام) في رباعيه المشهور :

كردون نكرى زعم فرسودهٔ ماست جيحون اثري زچشم پالوده ماست
دوزخ شرري زرنج بيهودهٔ ماست فردوس دمي زوقت اسوده ماست

وجد هذا الرباعي بخطه في ظهر بعض تفاسيره ومعناه قريب من مذهب الخيام .

اى انكه زاتش درون ميسوزى وز نار جحيم خشم نون ميسوزى

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كر زانكه نمونه ردوزخ خواهى بنكر بدرون خود كه چون ميسوزى
كر زانكه نمونه زدوزخ خواهى بنگر زدرون خود كه چون ميسوزى

ولقد أجاد الشاعر الكبير محمد السباعي بابراز هذا المعنى الفلسفي في العربية بقوله :

انني ارسلت روحي آنفاً في دياجي الغيب كيما أكشفا
غامضاً من عالم الخلد اختفى فانثنى روحي ونبّا انما
انا فردوس صفا نار انتقام

وجد هذا الرباعي بخطه على ظهر تفسيره لسورة الحديد بين رباعيات كلها بخطه .

اي بو العجب از بسكه ترابو العجست وهم همه عشاق جهان از نوغست
مسكين دل من ضعيف وعشق نوقويست بيچاره ضعيف كش قوى بايدز يست

(تأثير الفلسفة الاغريقية في نفسه) : منذ ظهر الانسان في الوجود خضعت نفسه بقوى العالم مادية كانت او ادبية وقوة التعليم من اقوى المؤثرات في النفس الانسانية ولا سيما اذا كانت القوة المؤثرة مما تقبله النفس بفطرتها أثرت الفلسفة الاغريقية وتعليم ارسطو واتباعه في نفسه اثراً عميقاً ذكر في اول (الاسفار) اني قد صرفت قوتي في سالف الزمان منذ اول الحداثة والريان في الفلسفة الالهية بمقدار ماأوتيت من المقدور وبلغ اليه قسطي من السعي الموفور واقتفيت آثار الحكماء السالفين والفضلاء اللاحقين منقلباً في نتائج خواطرهم وانظارهم مستفيداً من ابكار ضمائرهم وأسرارهم وحصلت ما وجدته في كتاب اليونانيين والرؤساء المعلمين تحصيلاً يختار اللباب من كل باب .

وقال في بحثه عن حدوث العالم واعلم ان أساطين الحكمة المعتبرة عند طائفة ثمانية ثلاثة من الملبين (ثالس وانكسيمانس واغاذيمون) ومن اليونانيين خمسة (انباذقلس وفيثاغورث وسقراط وافلاطون وارسطو) قدّس الله نفوسهم واشركنا الله في صالح دعائهم وبركتهم فلقد اشرقت أنوار الحكمة في العالم بسببهم وانتشرت العلوم الربوبية في القلوب بسعيهم وكل هؤلاء كانوا حكماء زهاداً عباداً متألهين معرضين عن الدنيا مقبلين على الآخرة فهؤلاء يسمون بالحكمة المطلقة ثم لم يسم احد بعد هؤلاء حكيماً بل كل واحد منهم ينسب الى صناعة كبقراط الطبيب وغيره ..

(منابع افكار صدر الدين وفلسفته) : نجد فلسفة صدر الدين تستمد من منابع

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيرة أهمها آراء اليونانيين ولا سيما آراء ارسطو وتليذه ابن سينا وافكار محيي الدين بن عربي الصوفي وتعاليم الدين الاسلامي المستخرجة من القرآن الحكيم والسنة النبوية فجدير ان نشير الى هذه المنابع الاربعة على سبيل الايجاز ليعلم وجهة فلسفته ·

(١ — آراء ارسطو) : فهي آراء وافكار نراها في كتبه الواصلة الينا بواسطة نقلة العصر العباسي الزاهر وفي كتب اليونان والعرب اهمها اثبات الحركة الطبيعية الازلية واثبات احتياج المتحرك بمحرك يتحرك بمحرك آخر حتى ينتهي الى متحرك لا يتحرك بآخر فهو جوهر وفعل معاً فهذا المحرك الثابت هو الله مصدر الحركة الابدية التي تتحرك بعلة غائية اي بطريق الجذب نحو العقل الاعظم والشوق اليه كما يستميلنا الخير و يستهوينا الشيء الجميل بدون دخل لها في ذلك وعلى هذا المثال يتجذب عالما الارواح والاجسام نحو الله بدافع ذاتي ·

وهو يرى ان المادة قديمة وان المحرك الاول اي الله لم يخلق المادة بل نظمها وان الله جوهر روحاني يتجلى فيه العقل والحياة باتم مظاهرهما ويتمتع ابداً بالسعادة الكاملة ولانها كه بمشاهدة ذاته لا يلتفت الى العالم ·

(٢ — آراء ابن سينا) : فهي على ما يظهر لنا آراء فلاسفة اليونان وافكار ارسطو وتعاليم مدرسة (امينوس سكاس) التي يسميها العرب بمدرسة الاسكندرانيين وتعاليم تلميذه ·

(افلوطين) الذي يسميها الشهرستاني بالشيخ اليوناني وهو منظم مذهب أستاذه وكان من آراء هذا الفيلسوف اليوناني فيما وراء الطبيعة (متافيزكا) ان هذا العالم كثير الظواهر دائم التغير وهو لم يوجد بنفسه بل لابد لوجوده من علة سابقة عليه هي السبب في وجوده وهذا الذي صدر عنه العالم واحد غير متعدد لا تدركه العقول ولا تصل الى كنهه الافكار ولا يحدّه حدّ وهو أزلي قائم بنفسه فوق المادة وفوق الروح وفوق العالم الروحاني خلق الخلق ولم يحلّ فيما خلق بل ظل قائماً بنفسه مسيطراً على خلقه ليس ذاتاً وليس صفة هو الارادة المطلقة لا يخرج شيء عن ارادته هو علة العلل ولا علة له وهو في كل مكان ولا مكان له و بحث انه كيف نشأ عنه العالم و كيف صدر هذا العالم المركب المتغير من البسيط الذي لا يلحقه تغير · كأن هذا العالم غير موجود ثم وجد كيف يصدر هذا العالم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفاني من الله غير الفاني . هل صدر هذا العالم من الصانع عن روية وتفكير او من غير روية ولمَ وجد الشر في العالم ؟ ما النفس واين كانت قبل حلولها بالبدن ؟ واين تكون بعد فراقه ؟ .

وهذه المسائل وأشباهها التي بحث عنها افلوطين هي مباحث شغلت حيزاً من افكار ابن سينا بعد ان ورثها من المعتزلة والصوفية وجمعية إخوان الصفا . كما هي المسائل التي درسها صدر الدين . زينها للناظرين في القرن الحادي عشر . وكانت الشرائع السماوية والقوانين الادبية تشغل مكاناً فسيحاً في مباديء ابن سينا واليك نص قوله في النبوة بقول :

يوجد رجال ذو طبيعة طاهرة اكتسبت نفوسهم بالطهر وبتعلقها بقوانين العالم العقلي لذا هم ينالون الالهام ويوحي اليهم العقل المؤثر في سائر الشؤون ويوجد غيرهم لاحاجة لهم الى الدرس للاتصال بالعقل المؤثر لانهم يعلمون كل شيء بدون واسطة . هؤلاء هم اصحاب العقل المقدّس وهذا العقل لمن السمو بحيث لا يمكن لكل البشر ان ينالهم منه نصيب وهذا القول صريح في انه يقصد باصحاب العقل المقدّس الانبياء الذين يحظون بالوحي الرباني كما انه اعتراف منه باصل كبير من اصول الاديان وهذه النزعة الدينية أثرت في نفس صدر الدين وصرّح في كثير من كتبه بمثل هذا الرأي الفلسفي الديني وبذلك نعلم ان ابن سينا بعيد عما نسبه اليه (الكونت دوغوبينو) في كتابه المذاهب والفلسفة في آسيا الوسطى بقوله ان ابن سينا نهض بل خرج على ما كان يعلمه الدين منذ اربعمائة سنة وانه هدم من الاسلام ومن معتقده جانباً عظيماً نعم انه كان ذا نفوذ كبير على أفكار الملوك والامراء فجهر بآرائه الفلسفية بحرية تامة لكنه احترم في جنبها الدين الاسلامي وكان حقاً معلماً كبيراً للفلسفة في ايران الى قدوم جنكيز خان المغولي .

(٣ — افكار محيي الدين بن عربي) : اكثر افكار هذا الامام الصوفي اختفت علينا وراء حجاب من الرموز والالغاز فما عرفناه من افكاره وحصل لنا اليقين به هو انه كان ممن يعتقد بوحدة الوجود حتى قال انه كفر النصارى ليس بقولهم ان المسيح هو الله بل كفرهم بقولهم انه ابن الله وكأنه كان يؤمن بنظريات اشور الحلولية على ان له آراء في الاخلاق الفاضلة والتي سلك سبيلها الصوفيون كالحب والسكر والتوبة والمجاهدة والخلوة والتقوى ومقامي الخوف والرجاء ومقام الفكر والذكر وأسرارهما وله بحث في النبوة وأسرارها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان محيي الدين يعد من قادة التصوف وحاملي لوائه ومعليه في ايران كابن سينا الى زمن جنكيزخان المغولي يبجله صدر الدين غاية التبجيل ويقرن اسمه بكلمات التجليل كالعالم الرباني والعارف الكامل وأشباهها واقتبس صدر الدين آراءه وأوردها ضمن الكلمات الفلسفية .

(٤ — الدين الاسلامي) : اما الدين الاسلامي فالقرآن باصوله العالية وسننه السامية (مرآة) تعاليم هذا الدين الجلي آخى بين العلم والدين وارشد الى توحيد الحق المهيمن وتنزيهه عن كل نقص وشرك واعلن باسم الله واعلاه في وسط كان تعبد الاوثان ورفض كل باطل وحطم كل وثن وصنم . وهو النور الذي ألقى أشعته البيضاء في مدة يسيرة بين الاندلس والهند . ولا زال سراجاً يضيء العالم في قرون طويلة ولكن النزاع في الخلافة في الصدر الاول الذي امتد الى القرون المتأخرة من ناحية وتشابه بعض آيات القرآن الذي دعا المفكرين الى النظر فيها من ناحية أخرى كانا من الاسباب التي اوجدت الفرق واحدثت الجدل .

فظهر هذا الدين بمظهر غير مظهره الذي تجلى به في الصدر الاول ظهر منحرفاً عن اصله السامي فبهذه الصورة تلقاه صدر الدين .

(وقوف حركة الفلسفة في ايران) : كانت لفلسفة ابن سينا حركة قوية في ايران الى ان هجم المغول في القرن السابع الهجري فوقفت هذه الحركة لان الغزاة كانوا يرمون الى الترتيب السياسي وتنظيمه ولم يكن لهم اهتمام بالفلسفة لان غاية هؤلاء الفاتحين كانت ان ينشئوا نظاماً مدنياً قوياً بكل ما يمكن من الوسائل ولما صبأوا الى الاسلام رأوا من المعقول ان يسندوا كل الاسناد هذا الدين فلم يوافقوا على نشر فلسفة ابن سينا ومن قال بمذهبه وان هم اهتموا بنشر الفنون والصنائع .

(ظهور الدولة الصفوية) : قلنا فيما سبق ان الحركة الفلسفية وقفت حينما هجم المغول لان كبير اهتمامهم كان بنشر الفنون والصنائع وقليلاً كانوا يعتنون بالعلم والأدب .

وسارت الامور هذا السير الى ان تسنم اول الصفويين غارب العرش وكان صوفياً بحتاً ولكنه لما رأى الشيعية مذهباً خاصاً بالبلاد الفارسية اولع بها هو وخلفاؤه ولما يدل على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ذكاء فانهم روجوا نموها وتبسطها بكل ما أوتوا من السطوة والسلطنة ولم يعن بفلسفة ابن سينا .

ولكن الفلسفة كانت تتحرك وتبدي اشارات الحياة لان ارجاع المسببات الى اسبابها والفحص عن عللها مما يطلبه الطبع البشري .

(طريقة التدريس في آسية) : ولما كان الدرس في العلوم العالية في آسية تتلقى مشافهة وكان الفلاسفة القائلون بمذهب ابن سينا متفرقين وهم نفر قليل كثير الخوف امام علماء الدين اضطر صدر الدين ان يخلي عدة سنين في جبال (قم) متنقلاً في رحلاته في فارس لاقطاً من أفواه الحكماء جميع الشروح التي نشأت من نفوس اصحابها بعد الخبرة والثقة بنفوسهم وبدأ بنفسه بعلم في المدن التي يمر بها ولما لم يكن له منافسون من جهة الفصاحة ولا من جهة التأنق في العبارة ولا من جهة سهولة التعبير كان سامعوه يفرحون بما يلقيه عليهم ويقتنونه بكل حرص وكانوا كثيرين ثم كان ينتقي منهم تلاميذ ذوي فضل ممتاز .

(خوفه من رجال الدين) : وكان صدر الدين نفسه ايضاً يخاف رجال الدين المتمسكين بالظواهر ولهذا كان يسعى جهده ان لا يثير في نفوسهم كامن الريبة فكان موضوع بحوثه اموراً مكنية يثبتها بالادلة الصريحة ولو لم يفعل ذلك لعرض نفسه لشكاياتهم وتشديدهم عليه تشديدات لا نهاية لها فيخاطر بالعمل عينه بمستقبل اصلاح الفلسفة الذي كان يفكر به فوفق بين فكره وبين مقتضيات الأحوال ولجأ الى الوسيلة العظمى وسيلة التقية والكتمان .

وكان اذا هبط مدينة يحرص على زيارة مجتهديها او علمائها ويجلس في آخر الناس وكان يطيل السكوت واذا تكلم نطق بكل هدوء وسكينة مستحسناً كل كلمة تخرج من أفواه اولئك الأجلة وكان اذا سئل عن معارفه لا ينطق الا بالآراء المدونة في أسفار المذهب الشيعي المحض ولا يشير ابداً الى انه يُعنى بالفلسفة وبعد ايام قليلة من رؤية المجتهدين والعلماء كانوا يدعونه بانفسهم الى ان يدرس تدريساً علنياً وللحال كان يلبي دعوتهم .

(طريقه في نشر فلسفته) : وكان يجعل عنوان درسه من ابواب الفقه اولاً ثم يزيد المسألة تدقيقاً في وجوب اتباع الاوامر والنواهي والفرائض على مايفعله امهر العلماء في نظرياتهم فكان هذا العمل يحببه في قلوب العلماء ويزيده اعتباراً . واذا كان يبحث

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في باب الوضوء او الصلوة كان ينتقل منها الى أسرارها ومنها الى نواميس الوحي ومنها الى التوحيد وكان هناك يجد مجالاً لاظهار آرائه الفلسفية وابراز شخصيته الكبيرة بآيات من الحذق والمهارة والاستدراك وكشف الاسرار للتلاميذ المتقدمين .

وكان في القاء دروسه يسرد عبارات ذات معنيين راقية تتراءى بوجهين لا يفهمها من تلاميذه الا الذين رسخت أقدامهم في الاستنتاج ثم يغطي كل هذه الأقوال بغشاء رقيق من العبارات الدينية التي تؤيد دينه وتظهر احترامه لمبادي الدين .

(بثه فلسفة ابن سينا) : وكان ينشر مذهب ابن سينا في الطبقة المنورة كلها واذا كان يحرص على اخفاء مذهبه في كلامه فكان اخفاؤه له فيما يكتبه اقوى واعظم والوقوف على حقيقة مذهبه الفلسفي صعب الا لمن اتصل سند درسه الى تلامذته الذين تلقوه عن نفسه ولمن وقف على اصطلاحاته الفلسفية وسند آرائه غير مقطوع في هذا العصر ولكن قلّ عدد تلامذته اليوم وكان في عصر ناصر الدين شاه القاجار جماعة من كبار تلامذته اي الذين كانوا ينقلون جيلاً بعد جيل عن معلمهم الاكبر من امر فكره و بايديهم مقاليد العبارات التي كان يتخذها لكي لا يعبر عن افكاره صريحاً .

(شخصيته الفلسفية) : يقول (الكونت دوغوبينو) ان صدر الدين لم يكن منشئ فلسفة جديدة بل هو أعاد الى فلسفة ابن سينا ضرمها واضاءها في مصباح جديد والحق انه اظهر شخصيته من ناحية مذهبه الفلسفي واتى برأي جديد مستقل في بعض مسائل فلسفية وخالف ابن سينا في مسائل جمة وسنشير الى بعضها ضمن هذه الرسالة . ولا شك انه كان مصلحاً للفلسفة الآسيوية وهو الذي البسها ثوباً يقبله كل من ينظر اليها فقبلها من كان في عهده واعجب بنظرياته العارفون .

ولا غرو فانه عاش في عهد غير عهد ابن سينا وفي وسط غير وسطه .

بدرسنا شخصية هذا الفيلسوف نراه انه أخلد اثر العلم اذ نفخ في رميم مذهب ابن سينا واعاد اليه شبابه في العصر الذي عاش فيه والبسه حلة مكنته من ان ينتشر في جميع مدارس ايران واستطاع ان يفسح لمذهبه الفلسفي موطناً بجانب تعاليم الدين ولولا خدمته العلمية لكان نجم الفلسفة يغرب وراء ظلمات الغزوات المغولية . وعشاق الفلسفة مدينون لهذا الفيلسوف الكبير . وحقاً يعدّ معلماً كبيراً للفلسفة في ايران بعد ابن سينا الى الآن .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

(مذهبه في أزلية العالم المادي وحدوثه) : افترق الدين والفلسفة في مسألة قدم العالم وحدوثه فبالضرورة ينتهي البحث الى أزلية (المادة وحدوثها) قدماً زمانياً يصرح الدين بظاهره بالحدوث وان يد الباري ابدعت المادة من العدم والفلسفة تجهر بالقدم .

وقف صدر الدين امام هذه المسألة العويصة وقوف المتحير ورأى نفسه بين تجاذب قوتي الدين والفلسفة .

يقول في اول رسالته في الحدوث (١) هذه المسألة تحيرت فيها افهام الفحول لغموضها والناس فيها بين مقلد كالحيارى ومجادل كالسكارى فمن المدققين من اعترف بالعجز عن اثبات الحدوث للعالم بالبرهان قائلاً ان العمدة في ذلك الحديث والاجماع من الملبين اذ الاول قد يحصل بالتقليد او الجدل وهما مناط الظن والتخمين والثاني لكونه بصيرة باطنية لا يحصل الا بالبرهان المنور للعقول التابع للوصول . (٢) وزيف آراء المتكلمين التي تمسكوا بها في حدوث المادة . وقال فمنهم من يتصدى لاثبات هذا المقصد العظيم بالأدلة المتزلزلة والاقيسة المختلة كالمتكلمين زعماً منهم ان تمهيد اصول الدين مما يحتاج الى تلك الكلمات الواهية .

وقال وما احسن قول (الغزالي) في حق من تصدى لنصرة قوام الدين بالامور السخيفة انه صديق جاهل . وقال ايضاً ان ايراد مثلها في معرض الانتصار للشرع القويم ربما يؤدي الى خلل عظيم من حيث ان صغار العقول ربما يزعمون ان اصول الدين مبنية على هذه الدعاوي الواهية هذا كما ان بعض المحدثين نقل ان بعض الزنادقة وضع الاحاديث في فضل الباذنجان منها (كلوا الباذنجان فانها اول شجرة آمنت بالله تعالى) .

وقال انما وضعه ليتوسل به الى القدح في صدق النبي (ص) الذي شهد الله تعالى بصدقه وهو نفسه لم يستطع ان يخطئ مبادئ الدين القائلة بالحدوث لقوة ايمانه بالانبياء وقبول اصول تعاليمهم قبولاً فلسفياً .

وقد رأي ابي نصر الفارابي المدون في رسالته في الجمع بين رأي الحكيمين افلاطون وارسطو بتأويله مذهب افلاطون في الحدوث بالحدوث الذاتي والافتقار الى الصانع .

وقال هذا القول في الحقيقة تكذيب للانبياء من حيث لا يدري وقال ان النصوص

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المأثورة عن افلاطون تعطي انه يريد بالحدوث الحدوث الزماني لا الحدوث الذاتي وقال وهذا من قصور ابي نصر في البلوغ الى شأو الأقدمين .

ونقل عن افلاطون في كتابه المعروف (بفاذا) وفي كتابه المعروف (بطياوس) كما حكى عنه تلامذته (كأرسطو) و (طياوس) و (شافرطوس) و (ابرقلس) انه قال ان للعالم مبدأ محدثاً ازلياً واجباً بذاته عالماً بجميع معلوماته على لغة (او نعت ؟) الأسباب الكلية كان في الازل ولم يكن في الوجود رسم ولا ظل (اوظلل؟) الا تمثال عن الباري جل اسمه ربما يعبر عنه بالعنصر الاول ووجّه ايضاً رأي ارسطو بانه يريد من الحدوث الحدوث الزماني ورأى ان العلم لا يصدق حدوثها من العدم المحض وفكر فكراً عميقاً ليحل المعضلة ولما انتهى فكره الى نقطة وجد فيها سبيله للتخلص من ظلمة هذا الشك .

رأى ان الوقت قد حان ليجهر برأيه فقال ان هذه المسألة عندي في غاية الوضوح والانارة لم اجد من نفسي رخصة في كتمانها وعدم الافاضة بها على من يستأهلها ويقبلها واخذ يجهر برأيه قائلاً ان ماسوى الله حادث . ولا قديم ذاتاً وزماناً الا الله تعالى .

(نظرية الحركة في الجوهر) : سلك في أزلية المادة مسلكاً وفق به بين الدين والفلسفة وابدى نظرية سماها (الحركة الجوهرية) وهي نظرية في غاية الغموض والابهام تكاد تشبه نظرية (انشتين) يعسر فهمها الا بالامعان والتدبر العميق في فلسفته واصطلاحه .

وهي ان العالم المادي مطلقاً لا يزال في تجدد مستمر فالمادة بجوهرها في الآن الثاني غير المادة في الآن الاول وهي متحركة دائماً بحركة جوهرية وللهيولى والصورة في كل آن تجدد مستمر .

ولتشابه الصور في الجسم البسيط ظن ان فيه صورة واحدة مستمرة لا على التجدد وليست كذلك بل هي واحدة بالحدّ لا بالعدّ لانها متجددة متعاقبة على نعت الاتصال لا بان يكون متفاصلة متجاورة ليلزم تركيب المقادير والأزمنة من غير المنقسمات و بهذه النظرية استنتج التوفيق بين الدين والفلسفة فالدين انما أراد من الحدوث تجدد المادة وحركتها حركة جوهرية وهي حادثة في كل آن وان لم يكن لها مبدأ زماني وهو يوافق العلم فلا اختلاف بينهما اذ كل منهما يقول بالحدوث بهذا المعنى والمبنى اي تجدد المادة تجدداً جوهرياً .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكل منهما يقول بالقدم لانها لا يتصوّر عقلاً حدوثها من العدم البحت حتى يتصوّر لها مبدأ زماني وهي نتيجة عدة اصول :

منها انه فرض للوجود طرفين وهو في احد طرفيه فعلية محضة من جميع الجهات وهو الباري الموجد تعالى وبعبارة اوضح هو الوجود المطلق وفيه كل الكمال المتصور الفعلي وفي طرفه الآخر قوة محضة من جميع الجهات الا في فعلية القوة[1] وهذا يطلق على الهيولى[2] .

فيكون في الوجود طرفان (الباري) تعالى و (الهيولى) والباري تعالى وجود اكمل من جميع الجهات فلا يحتاج الى الخروج عما كان وفي الوجود ايضاً مرتبة وسطى له الفعلية من جهة والقوة من أخرى فبالضرورة يكون فيه تركيب فذاته مركبة من شيئين احدهما بالفعل والآخر بالقوة وله من جهة القوة ان يخرج الى الفعل لغيره .

وهذا الخروج اذا كان بالتدريج يسمى حركة والحركة هي فعل او كمال اول للشيء الذي هو بالقوة[3] ومعنى الحركة التجدد والانقضاء .

والتجدد في المادة صفة ذاتية فلا تحتاج الى جاعل وفاعل يجعلها متجددة وهذا الرأي يفيد ان يد الباري اوجدت المادة متحركة والحركة موضوعة في طبعها والعلم الحديث ايضاً يقول ان حركة الذرات في طبعها ومنها المتحرك انما يتحرك بشيء آخر لا يكون بنفسه متحركاً فتكون حركة بالقوة فقابل الحركة امر بالقوة وفاعلها امر بالفعل والحركة على مذهبه سببها وجود فعلية القوة وللشيء ان يخرج الى الفعل لغيره ومنها ان مبدأ الحركة الطبيعة لا النفس ولا العقل[4] وقال الفاعل المباشر للحركة ليس عقلاً محضاً من

---

(١) فسر اصطلاحه في القوة بقوله هو مايقال لمبدإ التغير في شيء آخر من حيث هو شيء آخر سواء أكان فعلاً ام انفعالاً ويقول ايضاً ان القوة الفعلية قد تكون مبدأ الحركة واذا كانت مبدأ للحركة لا تخلو من التجدد والتغير فهو متحرك حافظ لتغيره وقد تكون القوة وراء مالا يتناهى بما لا تتناهى في الايجاد والابداع كقوة الباري وقد يكون في الانفعال بما لا يتناهى كالهيولى الاولى . (٢) فسرنا الهيولى فيما سبق . (٣) وهذا تعبير آخر عن سير الوجود نحو الكمال والارتقاء اليه حسب قانون النشوء والارتقاء .

(٤) العقل يطلق في اصطلاحه على الجوهر المجرد الروحي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

غير واسطة لعدم تغيره ولا نفساً من حيث ذاتها العقليـة بل ان كانت محركة فهي اما من حيث كونها في الجسم او من حيث تعلقها به فيكون اما طبيعة او في حكم الطبيعة ·

والطبيعة على مذهبه سيالة الذات متجددة الحقيقة نشأت حقيقتهـا المتجددة بين مادة شأنها القبول والزوال وفاعل محض شأنه الافاضة والإكمال فلا يزال ينبعث عن الفاعل امر وينعدم في القابل ثم يجبره الفاعل بايراد البدل على الاتصال ·

فهذه الاصول وصل الى النتيجـة التي هي مفاد نظريته وهي ان مبدأ الحركة سواء أكانت طبيعية ام ارادية ام قسرية هي الطبيعة · والحركة معناها التجدد والانقضاء ومبدأ التجدد لا بد ان يكون متجدداً فالطبيعة بالضرورة متجددة بحسب الذات لان المتحرك وهي المادة لا يتصوّر صدوره عن الساكن ويستحيل صدوره عن الثابت وقال وبصحة هذا الاصل اعترف الرئيس ابن سينا وغيره بان الطبيعة من جهة الثبـات ليست علة الحركة وقالوا لا بد من لحوق التغير بها من الخارج ·

والطبيعة اذا كانت متجددة فالمادة في الآن الثاني بجوهرها غير المادة في الآن الاول · قال في آخر الفصل الرابع من رسالة الحدوث :

تنبيه تمثيلي ان كان كل شخص جوهري له طبيعـة سيالة متجددة وله ايضاً امر ثابت مستمر نسبته اليها نسبة الروح الى الجسد فان الروح الانساني لتجردها باقية وطبيعة البدن ابداً في التجدد والسيلان والذوبان وانما هو متجدد الذات الباقية بورود الامثال والخلق الى غفلة عنه (بل هم في لبس من خلق جديد) وكل حال الصور الطبيعية متجددة من حيث وجودها المادي الوضعي الزماني فلها كون تدريجي متبدل غير مستقرّ الذات ومن حيث وجودها العقلي وصورتها المفارقة (اوالمقارنة ؟) الافلاطونية[1] باقية ازلاً وابداً في علم الله تعالى فالاول وجود دنيوي بائد داثر لا قرار له والثاني وجود ثابت غير داثر لاستحالة ان يزول شيء من الاشياء عن علمه او يتغير علمه تعالى (ان في هذا لبلاغاً لقوم عابدين) ·

ولما ابدى نظريته وتنبه انه تفرّد بها قال في الفصل الخامس من رسالة الحدوث اما قولك فيما سبق ان هـذا إحداث مذهب لم يقل به احد من الحكماء فهو كذب وظلم

(١) تطلق الصورة الافلاطونية في الفلسفة اليونانية على عالم المثال والجواهر المجردة ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فان اول حكيم قال به في كتابه هو الله سبحانه وهو أصدق الحكماء فانه قال : (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب) وقال : (بل هم في لبس من خلق جديد) . وقوله : (والسموات مطويات بيمينه) وقوله : (على ان نبدّل أمثالكم وننشأكم فيما لا تعلمون) .

وتمسك ببعض آيات وروايات أخر تركنا ذكرها لعدم دلالتها في نظرنا ثم نقل عن ابن عربي قوله في الفصوص : ان الانسان في الترقي دائماً وهو لا يشعر بذلك للطافة الحجاب ورقته وتشابه الصور مثل قوله : (وأتوا به متشابهاً) ونقل قوله في الباب السابع والستين والمائة من الفتوحات فالوجود كله متحرك على الدوام .

(اختياره مذهب التصوف ووحدة الوجود) : هذا الفيلسوف الآلهي يدور اكثر مباحثه حول التفكر في الآله المبدع ووحدته وصفاته المعنوية من العلم والحكمة والقدرة او ان شئت قل بحث عن القوة المدبرة للكون وفلسفته تستقي من معين التصوف ووحدة الوجود معتمدة على المبادئ الاشراقية وروح فلسفة افلاطون وارسطو بادية باجلى مظاهرها فيها وبلوح للناظر في كلماته انه إبان درسه الفلسفة خاض مدة مديدة لجج المسائل اللاهوتية ووازن حجج الفلاسفة من الاشراقيين والمشائين ودرس اصول المتكلمين واصحاب الجدل وعرف انها جميعاً لا توصل الى الحق ولا تروي غليله لانها معكرة بتناقض المبادئ .

وكيف تسكن نفس رجل زكي الفؤاد وقاد الذهن بما لا ينير ظلمة المعضلات في المسائل اللاهوتية العويصة وهي تحاول ان تبلغ مرتبة الشهود والعيان من مراتب الايمان وبعد مدة طويلة لما لم يجد ضالته في درس أدلة الجدليين الذين يقول في شأن فلسفتهم اني أستغفر الله وأستعيذ عما ضيعت شطراً من عمري في طريقهم غير المستقيم لاذ بحجر التصوف وهناك وجد سكونه واطمئنانه واخذ يسعى في التوفيق بينه وبين الشريعة بتأويل نصوصها وتوجيهها اليه .

جرت عادة الباحثين في المسائل اللاهوتية الا الصوفيين ان يضعوا باباً في البحث عن الموجد للكون .

ويذكروا فيها أدلة يستمد بعضها من ابطال التسلسل او الدور لزعمهم ان المبدع الحكيم (اي القوة المدبرة) منفصل عن الكون ولكن الصوفيين يرون ان الوجود المنبسط الذي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

يمثل الكون بمحسوسه ومعقوله كافٍ للدلالة على وجود الموجد وصفاته لانه عينه وفي كل شيء آية دالة على وحدته ومذهب وحدة الوجود (البانثيسم) الله في الكل والكل في الله هو سر التصوف وروحه ولاجل ذلك لا يتمسكون بادلة الكلاميين والجدليين وفرق الفلاسفة الذين تقرب فلسفتهم من مبادیهم ولا يستدلون بوجود القوة المدبرة المبدعة باكثر من بحثهم في شؤون الوجود المنبسط ومراتبه وظهوره .

وصدر الدين وان أفاض في البحث عن كل المباحث اللاهوتية واكثر مباحث الفلسفة الادبية والفلسفة العامة وتبحر فيها الا ان غرضنا الذي نرمي اليه هو ان نأتي من فلسفته بنقطتي الوفاق والخلاف مع الفلسفة المادية . وهي مسائل طالما سرّح الانسان افكاره حولها كمسألة هل المادة أزلية ام حادثة ؟ وهل للكون مبدع غير الطبع ؟ وهل هو شاعر عالم ؟ وهل في خلق الكون غاية وحكمة او لا ؟ ثم نردفها ببعض آرائه العلمية والادبية . وبذلك نصور نفسية رجل حكيم خدم اللغة العربية والعلم خدمة جليلة .

(طريقه الى معرفة الله تعالى) : يقول في الجزء الثالث من الاسفار الاربعة (فصل) في إثبات واجب الوجود والوصول الى معرفة ذاته : واعلم ان الطرق الى الله كثيرة لانه ذو فضائل وجهات كثيرة ولكل وجهة هو موليها لكن بعضها أوثق وأشرف وأنور من بعض . وأسد البراهين وأشرفها اليه هو الذي لايكون الوسط في البرهان غيره بالحقيقة فيكون الطريق الى المقصود هو عين المقصود وهذه سبيل الصديقين الذين يستشهدون به تعالى عليه ثم يستشهدون بذاته على صفاته وبصفاته على أفعاله واحداً بعد واحد وغير هؤلاء : كالمتكلمين والطبيعيين وغيرهم يتوسلون الى معرفة الله تعالى وصفاته بواسطة امر آخر غيره كالإمكان للهيئة والحدوث للخلق والحركة للجسم او غير ذلك وهي ايضاً دلائل على ذاته وشواهد على صفاته لكن هذا المنهج أحكم وأشرف وقد أشير في الكتاب الالآهي الى تلك الطرق بقوله تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) والى هذه الطريقة أشار بقوله : (أوَ لم يكفِ بربك أنه على كل شيء شهيد) .

وذلك لان الربانيين ينظرون الى الوجود و يحققونه ويعلمون انه أصل كل شيء ثم يصلون بالنظر اليه الى انه بحسب اصل حقيقته واجب الوجود . واما الامكان والحاجة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمعلولية وغير ذلك فانه يلحقه لا لاجل حقيقتـه بل لاجل نقائض واعدام خارجة عن اصل حقيقته ثم بالنظر فيما يلزم الوجوب او الامكان يصلون الى توحيـد ذاته وصفاته . ومن صفاته الى كيفية أفعاله وآثاره وهذه طريقة الانبياء كما في قوله تعالى : (قل هذه سبيلي أدعو الى الله على بصيرة) . وهـذا المذهب يشبه مذهب (باسكال) المتوفى سنة ١٦٦٢ م : — أرى في الطبيعة كائناً واجب الوجود دائماً لا نهائياً .

وقال في اول رسالته في سريان الوجود :

إعلم ان الواجب الحق هو المتفرد بالوجود الحقيقي وهو عينه وغيره من الممكنات موجودة بالانتساب اليه والارتباط به ارتباطاً خاصاً وانتساباً مخصوصاً لا بعروض الوجود كما هو المشهور .

ثم قال ان الوجود قد يطلق و يراد به الكون في الأعيان ولا شك في كونه امراً اعتبارياً انتزاعياً وقد يطلق و يراد به ماهو منشأ لانتزاع الكون في الاعيان ومصحح صدقه وحمله وهو بهذا المعنى عين الواجب .

وقال بعد بضعة سطور ان منـاط الوجوب الذاتي ليس الا كون نفس الواجب من حيث هي مبدأ لانتزاع الوجود والموجودية .

من الاصول المقررة في الفلسفة الالآهية التي وضع عليها بعض الآراء الفلسفية واعترف بها صدر الدين فيايظهر من كلماته السالفة ان الوجود امر واحد ذو مراتب في الشدة والضعف وله وحدة معنوية .

ومنها ان الوجود الحقيقي الذي صح ان يكون منشأ لانتزاع الموجودات عنـه والذي هو مصـدر الكون او هو كالشمس منبع الأنوار أزلي موجود قائم بالذات لا جاعل له . ومنها ان مفهوم الوجود من أعرف الاشياء . وكنهه في غاية الخفاء . فانا نرى ذرّة المادة ونحسها بالبصر ونلمسها باليد ولكن اسأل اي انسان تشاء من العلماء الطبيعيين (اي الفيزيولجيين) ما هي ؟ وكيف وجدت أأزلية ام حادثة ؟ وما هو سرّها ؟ يقف أمامك والحيرة ملكت عقله ولا يدري ماذا يجيبك ولا تنفعه اختباراته الكيمية والفيزيكية .

فمعرفة كنه الوجود رمز لايزال مجهولاً على رغم جهود الانسان في كشفه منذ الأجيال والقرون وذهب سعيه سدىً وكَلّ جناح فِكره عن الوصول اليه فضم هذه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأصول بعضها الى بعض ينتج ان القوة التي اوجدت الكون بمعقوله ومحسوسه ومثلث أجزاءه المنسقة ونظمتها بنظامه العجيب — هو الله على مذهب صدرالدين اومن هوسالك سبيله في القول بوحدة الوجود (١) .

وهذا الرأي قريب من مذهب القائلين بان الطبيعة هي موجدة الكون أزلاً ونقطة الوفاق بين المذهبين مذهب وحدة الوجود او الصوفيين ومذهب الطبيعيين هي ما أشرنا اليه . الا ان مذهب الصوفيين وأنصار وحدة الوجود كما سيذكره صدرالدين ونشيراليه يفارق مذهب الطبيعيين في ان هذه القوة الموجدة التي يطلقون عليها الوجود الحقيقي او الواجب الوجود واجدة لجميع مراتب الكمال المعقول ولا يشذ عنها كمال في الوجود فلها العلم القدرة باقصى مراتبهما فعله وقدرته غيرمتناهيين عدة وشدة ومدة . وصدر الدين والصوفيون وأنصار وحدة الوجود لايقولون بانفصال المبدإ (الله) عن الكون كما انهم لا يقولون بالحلول والاتحاد بل يقولون ان ارتباط الكون بالله تعالى وانتسابه كيفية مجهولة . قال صدر الدين في اول رسالته سريان الوجود ما هذا نصه : ثم اعلم ان ذلك الارتباط كما مر ليس بالحالية ولا بالمحلية بل هي نسبة خاصة وتعلق مخصوص يشبه نسبة المعروض الى العارض بوجه من الوجوه وليس هي بعينه كما توهم والحق ان حقيقة تلك النسبة والارتباط وكيفيتها مجهولة لا تعرف اه .

وهذا مذهب (مالبرانش) :

قال في الكتاب الثالث من تأليفه المسمى بالبحث عن الحقيقة ان جميع الكائنات حتى المادية والدنيوية هي في (الله) الا انها بطريقة روحانية محضة لا نستطيع فهمها يرى الله في داخل ذات نفسه كل الكائنات (ص ٧١) محاضرات العالم (دي جلارزا) الاستاذ في الجامعة المصرية وايد صدرالدين مذهبه بقوله تعالى (وهو معكم اينما كنتم

(١) والى هذا المعنى أشار الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي :

الله والكون لاعـ ـلان الحياة اقترنا
فما لذا عن ذاك او لذاك عن ذا من غنى
ما الكون الا مظهرٌ له به تبينـــا

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله على انه بكل شيء محيط وأحاط بما لديهم واحصى . وهو الله في السموات والارض ونحن أقرب اليه من حبل الوريد . ونحن أقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون . هو الاول والآخر والظاهر والباطن) . وهذا الفيلسوف لا يرضى ان تحمل هذه الآيات على مجرد علمه تعالى . وقال ولا تصرف هذه الآيات عن ظواهرها فحملها على مجرد علمه تعالى بها او غيرها كما هو شيمة الظاهريين .

فان الصرف عن الظواهر من غير داع اليه من عقل او نقل غير جائز اصلاً ولا داعي هناك قطعاً ولا مانع من الحمل على الظواهر على ما عرفناك فاعترف .

وقال صدر الدين ايضاً الأقرب في تقريب تلك النسبة أعني إحاطته ومعيته بالموجودات ما قال بعضهم من ان من عرف معية الروح وإحاطتها بالبدن مع تجردها وتنزهها عن الدخول فيه والخروج عنه واتصالها به وانفصالها عنه عرف بوجه ما كيفية إحاطته تعالى ومعيته بالموجودات من غير حلول واتحاد ولا دخول واتصال ولا خروج وانفصال وان كان التفاوت في ذلك كثيراً بل لا يتناهي ولهذا قال من عرف نفسه فقد عرف ربه وللتنبيه على هذا المعنى قال بعض المشايخ شعراً :

حق جان جهان است جهان جمله بدن املاك لطائف وحواس اين تن
افلاك عناصر ومواليد اعضا توحيد همين است دگر هاهمه فن

اي الله روح العالم والعالم كجسمه والاملاك حواس هذا الجسم اللطيفة والافلاك والعناصر الاربعة والمواليد الثلاثة اعضاء هذا الجسد وهذا هو التوحيد حقاً وغيره لا يتجاوز كونه فناً من الفنون . ثم يقول ولا يتوهم من ظاهر هذا الكلام ان الواجب الحق روح العالم ونفسه كما توهم بعض القاصرين تعالى عن ذلك علواً كبيراً فان ذلك على ما حقق في موضعه ممتنع بل غرضه تقريب كيفية إحاطته تعالى بالموجودات من بعض الوجوه الى الاذهان السليمة المستقيمة .

« للبحث تتمة »

ابو عبد الله الزنجاني
عضو المجمع العلمي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net